منزلة الشعر من التاريخ

﴿ ٤ ﴾

الاحتجاج بأنّ الشعر يؤخذ شاهدًا تاريخيًا

والشعر في الجاهلية كثير الروايات والاخبار يروي شاعر القبيلة ما عليها وما لها ويقصّ اخبار الملوك على غاية من السداد والتحقيق فمن ذلك ما جاء في شعر أُمية بن ابي الصلت في رواية استخلاص سيف بن ذي يزن الحميري ملك آبائه التبابعة من الحبشان وهو قوله

لا تطلب الثار الاّ كابن ذي يزنٍ ... اذ خيّم البحر للاعداء احوالا
واف هرقلَ وقد شالت نعامتهُ ... فلم يجدْ عندهُ النصر الذي سالا(١)
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرةٍ ... من السنين يهين النفس والمالا(٢)
حتى أتى بيتي الأحوار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الارض اجبالا
بيض مرازبة غلب أساورةٌ ... اسدٌ تربّث في الغيطان اشبالا(٣)

فانظر يا رعاك الله كيف ذكر هذا الشاعر رحلة الملك سيف وما اعترضهُ من المثبّطات وثباتهُ على السعي عشر سنوات واستصراخهُ كسرى لما رأى اغفال امره عند قيصر ثم فوزهُ بالملك اخيرًا . ولعمري ايستطيع المؤرخ ان يجمع في اقل من هذه العبارات ما اوردهُ هذا الشاعر في ابياتهِ. ولو وازنّا بمعيار التعقّل بين قول مؤرّخٍ مّا لهذه الحوادث وهذا الشاعر فيا ليت شعري مَن يكون الأثبت رواية والاصدق عهدة. اقائل بحضرة الملك عن ذاك الملك نفسهِ انهُ عاذ بالقيصر هرقل فلم يفزْ بطائل ثم لجأ الى كسرى فأمدّهُ بالرجال. ام ناقلٌ عن رواةٍ لا مندوحة لنا مهما وثقنا بصحة روايتهم من ان نقرّ ان هذا الشاعر كان اقرب الى ذاك الملك منهم واعرف بحالتهِ

وأتبرّأ الى القارىء اللبيب من ان اكون ممن يذهب الى احلال الشعراء مراتب الاولياء واعتبار كلامهم مُنزّلاً لا اثر بهِ لهوى النفس ولا وجهَ للقول بأنّ فيهِ تحاملاً. ولكنني ابوّئ الشعراء مكانة اصدق المؤرخين وما من مؤرّخ خلت اقوالهُ من مغامز. ولدى المقايسة نجد ان كثيرًا من المؤرخين أضربوا عن تدوين ما يشين أُمتهم واما الشعراء فكثيرًا ما اثبتوا ما عليهم

---

(١) شالت نعامتهُ مات وسال مسهل سأل (٢) انتحى قصد (٣) المرازبة جمع مرزبان وهو رئيس الفرس والغيطان جمع غوط وهو المطمئن الواسع من الارض

ولو جرّ غضاضة على اقدارهم لإيثارهم الصدق على الكذب . ولنا شواهد عديدة تؤيد ما قلناهُ من ذلك قول ورقاء بن زهير العبسي

رأيتُ زهيرًا تحت كلكل خالدٍ فاقبلت اسعى كالظليم ابادرُ (١)
فشُلَّت يميني يوم اضربُ خالدًا وشُلَّت ثناياها وشُلَّ الحناصرُ (٢)
ويا ليتني من قبل ايام خالدٍ ويوم زهيرٍ لم تلدني قماضرُ (٣)
فطرّ خالد ان كنت تسطيع طيرة ولا تقعنّ الا وقلبك حاذرُ

فان قولهُ هذا اقرار بالفشل ومن روى عن نفسهِ الخذلان في مطلبهِ جدير بنا ان نصدّقهُ اذا روى الغلبة لخصمهِ . وكذلك يقول وعلة بن عبد الله الجرمي

ولما سمعتُ الخيل تدعو مقاعسًا تطلّع مني ثغرة النحر حائرُ
نجوتُ نجاءً ليس فيهِ وتيرة كأني عقاب دون تيمن كاسرُ

فهذا اقرار صريح بانهُ فرّ من معمعة الهيجاء وهو اكبر العيوب عند العرب ومع ذلك فانهُ لم ينكر التحافهُ بهِ . وقد شهد عامر بن الطفيل لاعدائهِ بالمنعة حيث قال

تقول ابنة العمري مالك بعد ما اراك صحيحًا كالسليم المغلّبِ
فقلتُ لها همي الذي تعرفينهُ من الثار في حيي زيد وأرحبِ
ان آغزُ زيدًا اغزُ قومًا اعزّةً مراكبهم في الحي خير مراكبِ
وان اغزُ حيي خثعم فدماؤهم شفاء وخير الثار للمتأوّبِ

وقد شكا عمرو بن معدي كرب من قومهِ حيث قال

فلو أنّ قومي انطقتني رماحهم نطقتُ ولكنّ الرماحَ اجرّتِ

واعترف فروة بن مسيك المرادي بانكسار قومهِ واعتذر لهم بقولهِ

فان نغلب فغلّابون قدمًا وان نغلَب فغير مغلّبينا (٤)
وما ان طبنا جبنٌ ولكن منايانا ودولة آخرينا

وذكر زفر بن الحارث بن معاوية الكلابي بأس اعدائهِ واقرّ بالغلبة لهم حيث قال

فلمّا لقينا عصبة تغلبية يقودون جردًا بالاعنّة ضمّرا
سقيناهمُ كاسًا سقونا بمثلها ولكنهم كانوا على الموت اصبرا
وكنّا حسبنا كلّ بيضاء شحمة عشية لاقينا جذام وحميرا

(١) الكلكل الصدر او ما بين الترقوتين والظليم الذكر من النعام (٢) شلت الخ دعاء عليها ان تبس
(٣) قماضر اسم امرأة (٤) المغلب المطلوب المرة بعد الاخرى

وهذا يخالف ما ورد في شعر النابغة الجعدي وقد قال

فلمّا قرعنا النبع بالنبع بعضهُ ببعض أبتْ عيدانهُ ان تكسرا (١)
سقيناهمُ كأساً سقونا بمثلها ولكننا كنّا على الموت اصبرا

ومما يروى للعباس بن مرداس السلمي ويُعَدُّ من باب المنصفات قولهُ

سمونا لهم سبعاً وعشرين ليلة نجوب من الاعراض قفراً بسابسا
فلم أرَ مثل الحيّ حيّاً مصبّحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
اكرّ واحمى للحقيقة منهمُ واضربَ منّا بالسيوف القوانسا (٢)
اذا ما شددنا شدّة نصبوا لنا صدور المذاكي والرماح المداعسا (٣)
وكنتُ امام القوم اول ضارب وطاعنتُ اذ كان الطعانُ تخالُسا (٤)
ولو مات منهم من جرحنا لاصبحت ضباع بأكفاف الاراك عرائسا
فان نقتلوا منا كميّاً فاننا أبأنا بهِ قتلى تُذِلُّ المعاطسا
قتلنا بهِ في ملتقى القوم خمسة ومن بعدهِ زدنا مع القوم سادسا
وكنّا اذا ما الحرب شبّت نشبّها ونضربُ فيها الايلج المتقاعسا (٥)

وقد بلغ هذا القول الى عمرو بن معدي كرب خصم القائل فما أنكرهُ واجاب

اعبّاس لو كانت شباراً جيادنا بتثليث ماناصيتَ بعدي الاحامسا (٦)
لدمنا كمُ بالخيل من كل جانب كما داس طباخ القدور الكرادسا (٧)

وقد نجد هذا الانصاف في شعر المهلهل عدي بن ربيعة التغلبي حيث يقول

فانا غدوة وبني ابينا بجنب عنيزة رحيا مُدبِر

وما نجدهُ في اقوال هؤلاء الشعراء من الاقرار بشجاعة اعدائهم وانصافهم لا نراهُ في اسفار المؤرخين من يونان ورومان فان اولئك المؤرخين يحيفون على اخصامهم كل الحيف ويرمونهم بكل داهية نآد . فالاستشهاد باقوال الشعراء حيث وُجد نصٌّ قامت الدلائل على انهُ مُرسَلٌ عن قوس خلو الغرض او امكن استخراج ذلك المضاد من القرائن المقبولة عقلاً يكون اولى من

(١) النبع شجر تتخذ منهُ القسيُّ (٢) اكر اي لا اكر . واضرب اي ولا اضرب والقوانس جمع قونس وهو اعلى الراس (٣) المداعس جمع مدعاس وهو الرمح الذي لا ينثني (٤) من خالسهُ اي اعجلهُ (٥) الايلج المشرق وهو بريد الرئيس والمتقاعس المتأخر وكنا ان نهم من هذا البيت ان قادة الحرب عند العرب كانوا يقفون في المدعرة حين اشتباك الحرب (٦) شباراً اي سماناً قوية (٧) الكردوس كل ملتقى عظمين كذا جاء في خزانة الادب للبغدادي وفي المعاجم للكردوس معنى آخر وهو كل عظم عظمت غضته اي شبط واخذ ما عليهِ والطباخ يغلب ان تكون العظام ملقاة تحت قدميهِ

الوثوق بقول مؤرخ متأخر الزمان مهما كان ثقة في روايته وخبيراً بحل طلاسم الآثار الطامسة وبهذا القدر كفاية من ايراد النتائج المستخلصة من اقوال الشعراء على الطريقة الاولى وهي طريقة الجمع وسنورد ابحاثاً اخرى على الطريقة الثانية اي طريقة التنسيق

امين ظاهر خيرالله

عروسة النيل

الفصل الحادي والثلاثون

واشقاء المحبين انهم لا يكادون يذوقون طعم الهناء حتى تفاجئهم التعاسة من حيث لا يدرون فقد كان اوربون يستسهل الموت في سبيل مرضاة محبوبته ويتمنى لو تعرض لهُ فرصة تمكنهُ من ابداء شهامته ومروءته وشدة اخلاصه في حبها وهو يحسب ان السعادة بسمت لهُ بعد عبوسها واشرق كوكب سعده بعد غروبه لكنهُ لم يكد يخرج من بستان روفينس حتى اسودَّ الضياء في عينيه ورأى خيبة الامل ماثلة امامهُ فاستغرب هذا الانقلاب وعجب لباولين كيف سمحت مجالاً في قلبها للريب ففرَّق ثالث بينهما كما فعلت الرئيسة تلك الراهبة التي ناصبتهُ العداوة يوم عقد النية على المجازفة بحياته وماله سعياً لانقاذها وانقاذ من في ديرها فقابلت معروفهُ واحسانهُ بالطعن فيه وتحويل قلب باولين عنهُ فكاد يصيبهُ مسٌّ من الجنون ولولا وعدهُ لروفينس بان يشاركهُ في سفره لاقلع عن عزمه في تلك الساعة ولما بلغ البيت اسرع الى غرفته واستلقى على مقعد وهو يضرب اخماساً لاسداس وتمثلت لهُ باولين باكية شاكية مترددة فاستاء لتردها وطفق يفكر في وسيلة ترجعها عن غيها ولمَّا اعياهُ الامر نهض ومشى الى غرفتها فرأى قيثارتها مسندة الى الجدار فتناولها ونقر عليها لحناً فلم ترقهُ رنَّتها فطرحها من يده واخذ قيثارتهُ فعزف بها عزفاً دلَّ على ما كان يجيش في صدره من الحب والغضب والقهر وكان نقرهُ شديداً لما هاجهُ من واقعته مع حبيبته فلم ينته من الدور حتى انكسر عامود القيثارة وحينئذٍ طلع عليه كاتبهُ فقال

— اتى رسول بهذا اللوح وفيه ان يوستينوس وقرينتهُ في منف ويطلبان اليك ان توافيهما الى الفندق فلهما معك حديث ذو شأن

— ايوستينوس في منف وافرحناهُ فقد صار في طاقتي اذاً ان احفي بهم واكرمهم فاكافئهم على بعض فضلهم وسابق جميلهم فرهم يعدُّوا المركبة وقل لسبك ان يهيئ غرف الضيوف